أن يرى الآخرون مهارته فى القتال ليشيدوا ويتحدثوا بهذه المهارة. ولا أحد بقادر على أن يدلس على الله عز وجل.

ويقول سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٨) ﴾

و « ذلكم » إشارة إلى أن الأمر كان كذلك، وسبحانه وتعالى هنا يخبرنا أنه موهن كيد الكافرين، أى يضعف هذا الكيد، ولسائل أن يقول : لماذا لا ينهاهم ؟ ولماذا يضعف الكفر فقط ؟ ونقول : إن إضعاف الكفر يُهَيِّج على الإيمان ويحبب المؤمنين فى الإيمان حين يرون آثار الكفر التى تفسد فى الأرض وهى تضعف، ولأن الحمية الإيمانية تزيد حين يهاج الإسلام من خصومه. إذن فبقاء الكفر لون من استبقاء الإيمان.

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٩) ﴾

و « تستفتحوا » من الاستفتاح وهو طلب الفتح؛ لأن الألف والسين والتاء تأتى بمعنى الطلب، فنقول : استفهم أى طلب الفهم، و « إن تستفتحوا »، أى تطلبوا الفتح، ونعلم أن المعنويات مأخوذة كلها من الأمر الحسيّ؛ لأن أول إلف للإنسان فى المعلومات جاء من الأمور الحسّية، ثم تتكون للإنسان المعلومات العقلية. ومثال ذلك قولنا : « إن النار محرقة »، وعرفنا هذا القول

من تجربة حسّية مرت بأكثر من إنسان ثم صارت قضية عقلية يعرفها الإنسان وإن لم ير ناراً وإن لم ير إحراقاً.

وعندما تجتمع المحسات تتكون عند الإنسان خمائر معنوية وقضايا كلية يدير بها شئونه العامة، ومثال ذلك : إننا نعرف جميعاً أن المجتهد ينجح، وأخذنا هذه الحقيقة من الواقع، تماماً كما أخذنا الحقيقة القائلة : إن المقصر والمهمل كل منهما يرسب.

وسبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه فيقول :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾

(من الآية ٧٨ سورة النحل)

أى أن الإنسان منا مخلوق وهو خالى الذهن، وخلو الذهن يطلب الامتلاء، وكل معلومة يتلقاها الذهن الصغير يستطيع أن يستظهرها فوراً، ولذلك نجد التلميذ الصغير أقدر على حفظ القرآن الكريم من الشاب الكبير ؛ لأن هذا الشاب الكبير قد يزدحم ذهنه بالمعلوم العقلى.

وقد شرح لنا علماء النفس هذه المسألة حين قالوا : إن لكل شعور بؤرة هى مركز الشعور. والأمر الذى تفكر فيه تجد المعلومات الخاصة به فى ذهنك فوراً. وقد تتزحزح هذه المعلومات من ذاكرتك إذا فكرت فى موضوع آخر، كما تتزحزح المعلومات الخاصة بالموضوع السابق إلى حافة الشعور لتحل مكانها المعلومات الخاصة بالموضوع الجديد فى بؤرة الشعور.

والحيز فى المعنويات مثله مثل الحيز فى الحسِّيات، فأنت حين تملأ زجاجة بالمياه لابد أن تكون فوهة الزجاجة متسعة لتدخل فيها المياه ويخرج الهواء الذى بداخل الزجاجة. لكن إن كانت فوهة الزجاجة ضيقة كفوهة زجاجة العطر مثلا

فهذه يصعب ملؤها بالمياه إلا بواسطة أداة لها سن رفيع كالسرنجة الطبية حتى يمكن إدخال المياه وطرد الهواء الموجود بداخل الزجاجة ذات الفوهة الضيقة.

وهكذا نرى أن الحيز فى الأمور المحسة لا يسع كميتين مختلفتى النوعية، ويكون حجم كل منهما مساوياً لحجم الحيز. وتقترب المسألة فى المخ من هذا الأمر أيضاً، فأنت لا تتذكر المعلومات الخاصة بموضوع معين إلا إذا كان الموضوع فى مركز الشعور، فإذا ما ابتعد الموضوع عن تفكيرك بعدت المعلومات الخاصة به إلى حاشية الشعور البعيدة. والطفل الصغير يكون خالى الذهن لذلك يستقبل المعلومات بسرعة ويكون مستحضرا لها.

ولذلك لا يجب أن نتهم إنساناً بالغباء وآخر بالذكاء لمجرد قدرة واحد على سرعة التّذكر وعجز الآخر عن مجاراة زميله فى ذلك، فالذكاء له مقاييس متعددة مازال العلماء إلى الآن يختلفون حولها. لكن فى موضوع التذكر اتفق جانب كبير من العلماء على أن الذهن كآلة التصوير يأخذ المعلومة من أول لقطة شريطة أن تكون بؤرة الشعور خالية لهذه المعلومة. أما إن كانت بؤرة الشعور مشغولة بأمر آخر فهى لا تلتقط المعلومة. والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

والسمع والأبصار هما عمدة الحواس، نأخذ بهما محسّات ونُكَوّنُ منها معلومات عقلية.

والحق تبارك وتعالى هنا يقول :

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والفتح يُطلق إطلاقات متعددة، منها الحسّى، مثل فتح الباب أو فتح الكيس ويقصد إزالة إغلاق شيء يصون شيئاً، مثل فتح الباب، والباب إنما يصون ما بداخل الغرفة. والفتح الحسّى يمثله القرآن الكريم بقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة يوسف)

أى إن إخوة يوسف حين فتحوا الأخراج - وكانت هى بديلة الحقائب - وجدوا البضاعة التى كانوا قد أخذوها معهم ليستبدلوا بها سلعاً أخرى. وهذا هو الفتح الحسّى.

وقد يكون الفتح فى الأمور المعنوية كالفتح فى الخير وفى العلم مثل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾

(من الآية ٢ سورة فاطر)

إذن ففتح الرحمة فتح معنوى.

وقد يكون الفتح فى الحكم ؛ لأن الحكم يكون بين أطراف مشتبكة فى قضية، وكل طرف يدّعى على الآخر، ويأتى الحكم ليزيل خفاء القضية ويفتّحها.

ومثال ذلك ما حدث بين سيدنا نوح عليه السلام وقومه. فقومه قالوا :

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الشعراء)

فماذا قال سيدنا نوح عليه السلام ؟ :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

أى أن سيدنا نوحاً عليه السلام قد دعا الله أن يفصل فى القضية التى بينه وبين قومه بالحق وهو يعلم أن الله تعالى معه. لذلك طلب منه النجاة لنفسه ولمن معه من المؤمنين.

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد أن الفتح يأتى بمعنى الحكم الذى يفصل بين المتنازعين، وهو صلب حكم يفصل بين فريقين، فريق الهدى والداعى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين، وفريق الضلال وهم كفار قريش.

وقد استفتح الفريقان، فقد قال أبو جهل حين التقى القوم : « اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف فأحنه [1] الغداة» [2].

لقد ظن أبو جهل أن سيدنا محمدا صلى الله عليه ويسلم يقطع رحمهم، ويجعل الولد يترك أباه وأمه، وأيضاً كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى

(١) أحِنْهُ : أى أهلكه.
(٢) رواه أحمد والنسائى والحاكم.

بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا :

« اللهم انصر أعلى الجندين ، وأكرم الفئتين وخير القبيلتين »

هكذا كان دعاء الكفار.

أما دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو قوله :

(يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً) .

والاستفتاح من الطرفين يدل على أن كلا منهما مجهد بأمر الآخر ، فلو كان أحدهما مرتاحاً والآخر متعباً لطلب المتعب الفتح وحده.

وجاء الحكم من الله سبحانه وتعالى فى القضية هذه ، حيث حكم تبارك وتعالى على الكافرين بأن يُسلبوا ويقتلوا ويصبحوا مثار السخرية من أنفسهم وممن يرونهم وقد استحقوا ذلك بسبب كفرهم وضلالهم وعنادهم ومحاربتهم للحق ، والذى رجح أن الفتح جاء أيضاً من المؤمنين أن الحق قال :

﴿ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

أى إن كنتم قد استفتحتم وطلبتم الفصل والحكم فقد جاءكم الفتح ، وهذا الفتح كان فى صالح المؤمنين ، وأيضاً فى صالح دعاء الكافرين ، إنه جاء فى الأمرين الاثنين ؛ فتح للمؤمنين ، وفى صالح دعاء الكفار. فأنتم - أيها الكافرون - قد دعوتم ، فإما أن تكونوا قد دعوتم والله أجاب دعاءكم وهو شر عليكم ، وهذا دليل على أنكم أغبياء فى الدعاء ، ومادام الفتح قد جاء ، كان الواجب أن ينتهى كل فريق عند الحد الذى وقع ، وكان على الكافرين أن يقتنعوا بأنهم انهزموا ، وعلى المؤمنين أن يقتنعوا بأنهم انتصروا.

﴿ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

و « تنتهوا » هذه صالحة أولاً بظاهرها للكفار، أى إن تنتهوا عن معاداة الرسول وخصومته، واللجج فى أنكم جعلتموه عدوا، وتتكتلون وتتآمرون عليه، فإن تنتهوا فهذا خير لكم فى دنياكم لأنكم قد رأيتم النتيجة. حيث قتل البعض من صناديدكم، وأسر البعض الآخر، وأخذت منكم الأسلاب والغنائم. فإن انتهيتم عن العمل الذى سبب هذا فهو خير لكم فى دنياكم، وخير لكم أيضاً فى أخراكم؛ إذا كان الانتهاء سيئول بكم إلى أن تنتهوا عن مخاصمة الدين الذى تخاصمونه وتصبحوا من المتمين إليه.

ويتابع سبحانه وتعالى قوله :

﴿ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

وإن لم تنتهوا وعدتم إلى العداء ومحاربة هذا الدين فسنعود لنصرة المؤمنين، وإياكم أن تقولوا إنكم فئة كثيرة؛ ففئتكم لن تغنى من الله عنكم شيئاً، والدليل على ذلك أنكم هزمتم فى بدر وأنتم كثرة، وأصحاب عدد، وأصحاب عدة. فما أغنت عنكم كثرتكم ولا عدتكم شيئا.

﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

وكان المؤمنون قلة ورغم ذلك كانوا هم الغالبين.

وما تقدم إنما يعنى الكلام بالنسبة للكفار، فماذا إذا كان الكلام والاستفتاح

بالنسبة للمؤمنين، ففي أي شيء ينتهون ؟.

إن عليهم أن ينتهوا عن اللجاج والخلاف في الغنائم، الذي جاء فيه قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

وهم قد اضطروا أن يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم ربه، فإن عادوا للنزاع والجدل فيما بينهم وكأنهم فريقان متعارضان غير مجموعين على إيمان، فلن تغني فئة عن أخرى شيئا، وعليكم أن تعلموا يا أهل الإيمان أنه إن عزت طائفة منكم، فلتهن أمامها الطائفة الأخرى، ولا تظنوا أنكم بالنصر قد صرتم كثيراً لأن النصر لم يكن لا بالفئة ولا بالملائكة، ولكن النصر كان من عند الله العزيز الحكيم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذا نداء واضح من الله عز وجل للمؤمنين، وأمر محدد منه بطاعة الله والرسول؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد الجازم القلبي بالله وبملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وعلى المؤمنين أن يؤدوا مطلوب الإيمان. ومطلوب الإيمان - أيها المؤمنون - أن تنفذوا التكاليف التي يأتي بها المنهج من الله عز وجل، ومن المبلغ عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، في الأوامر وفي النواهي.

وقد فصلنا من قبل مسألة الطاعة، الطاعة لله تكون فى الأمر الإجمالى، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تكون فى اتباع الحكم التفصيلى التطبيقى الذى يأتى به رسول الله للأمر الإجمالى. وكذلك تكون طاعة الرسول واجبة فى أى أمر أو حكم؛ لأن الله قد فوض رسوله صلى الله عليه وسلم فى ذلك :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة النساء)

ويتمثل التفويض من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الملحظ الجميل فى الأداء القرآنى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والتولى - كما نعلم - هو الإعراض، والأمر هنا بعدم الإعراض، ومادمتم قد آمنتم فلا إعراض عما تؤمنون به. والملحظ الجميل أنه سبحانه لم يقل: ولا تولوا عنهما. قياساً بالأسلوب البشرى. لكنه قال: « ولا تولوا عنه » أى أنه سبحانه وتعالى قد وحد الكلام فى أمرين اثنين؛ طاعة الله وطاعة الرسول، ولأن الرسول مبلغ عن الله فلا تقسيم بين الطاعتين؛ لأن طاعة الرسول هى طاعة لله تعالى.

أو نقول : إن التولى لا يكون أبداً بالنسبة إلى الله ، فلا أحد بقادر على أن يتولى عن الله ؛ لأن الله لاحقه ومدركه فى أى وقت.

لذلك نجد الحق تبارك وتعالى يقول فى آية ثانية :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهو سبحانه وتعالى فى هذا القول يوحد بين رضاء الله والرسول فيجعله رضاءً واحداً ، فالواحد من هؤلاء يقسم أنه لم يفعل الفعل المخالف للإيمان إرضاءً للمؤمنين ، وليبرىء نفسه عند البشر ، لكن هناك رضاء أعلى هو رضاء مراعاة تطبيق المنهج الذى أنزله الله عز وجل وجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهناك قيوم أعلى يرقب كل سلوك ، ويعلم ما ظهر وما بطن. فلو كنا متروكين لبعضنا البعض لكان لأى إنسان أن يواجه الآخر ، كل بقو ته ، لكن نحن فى الإيمان نعلم أننا تحت رقابة المقتدر القيوم ، فمن ظلم أخاه ؛ وغفر المظلوم لظالمه ، فالله سبحانه وتعالى رب الظالم ورب المظلوم - لا يغفر للظالم بل يؤاخذه.

وسبحانه وحد أيضاً فى هذه الآية بين رضاء الله ورضاء الرسول ولم يقل : والله ورسوله أحق أن يرضوهما بظاهر الأسلوب فى لغة البشر ، لكنه شاء أن يوحد الرضاء ؛ لأنه يدور حول أمر واحد بطاعة واحدة ، وحول نهى واحد بانتهاء واحد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا الأمر بطاعة الله تعالى والرسول بلاغ من الله، والبلاغ أول وسيلة له الأذن، لأن الأذن أول وسيلة للإدراكات، ولذلك فإنّ الرسول يبلغ الأوامر بالقول للناس، ولم يبلغهم بالكتابة؛ لأن كل الناس لا تقرأ، فأبلغ صلى الله عليه وسلم الناس قولاً كما أمر أن يكتب القرآن ليظل محفوظا.

ونعلم أن السماع هو الأصل في القراءة. وأنت لا تقرأ مكتوباً، ولا تكتب مسموعاً إلا إذا عرفت القواعد، وعرفت كيفية نطق الحروف.

والمعلم يعلم طالب المعرفة القراءة والكتابة عن طريق السماع أولاً، إذن فالسماع مقدم في كل شيء، ولن يستطيع واحد أن يقول في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم تبلغني الدعوة؛ لأن الدعوة أبلغت للناس بالسماع، وقوله: « وأنتم تسمعون » تعطينا أن الإنسان إن لم تبلغه الدعوة، فليس مناطاً للتكليف، لأن ربنا سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

والمجتمعات التي تعيش في غفلة وليس عندهم رسول ولم يبلغهم المنهج، لن يعذبهم الله، وهذا أمر وارد الآن في البلاد النائية البعيدة عن الالتقاء بالإسلام وبمنهج الإسلام، وبالسماع عن الإسلام؛ لأنهم ما سمعوا شيئاً عن الدين ولم يعرفوا منهجه. وهؤلاء ناجون من العذاب طبقاً لقول الله تعالى:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

فثمرة بعث الرسول أن يبلغ الناس، ولذلك أخذنا حكما هاماً من الأحكام من قوله الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأنفال)

أخذنا من هذا القول أن من لم يبلغهم المنهج لا يحاسبون. ولكن أيكفى السماع فى أن نعلم المنهج . لا ، لا يكفى فى السماع أن نعلم أن هناك رسولاً جاء ليعقب على رسول سبق ، ولكن عليك أن تبحث أنت. فإن كان فى الأرض من لم يبلغه هذا فهو ناجٍ ، وإن كان قد بلغه خبر رسول ولم يبلغه المنهج الكامل فعليه أن يبحث بنفسه ، بدليل أن الإنسان يبحث عن أهون الأشياء بمجرد أن يسمع عنها ، ويشغل نفسه بالبحث.

ولنفرض أن إنساناً قال فى قرية : إن الدولة ستغير بطاقة التموين ، ألا يتجه كل فرد فى القرية ليسأل عن هذا الأمر ويهتم به كل الاهتمام ؟. إذن كان يكفى فى وصول البلاغ أن يسمع الإنسان رسولاً فى العرب قد جاء للناس كافة برسالة عامة ، وأن هذه الرسالة تعقب الرسالات السابقة ، ومن سمع هذا السماع كان عليه أن يعامل هذا الخبر معاملة المصالح الدنيوية الأساسية لأنه اذا كان أمر الدنيا هاماً فما بالنا بأمر صلاح الدنيا والآخرة ؟.

وجزء من التبعة فى ذلك يقع على المسلمين الذين لم يجدُّوا ويبلغوا منهج الله ودين الله إلى غيرهم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

ففى هذه الآية الكريمة ينهانا الحق جل وعلا أن نكون مثل من قالوا :

«سمعنا» وحكم الله بأنهم لا يسمعون ، وهؤلاء هم من أخذوا السمع بقانون الأحداث الجارية على ظواهر الحركة فسمعوا ولم يلتفتوا ؛ لأن المراد بالسماع ليس أن تسمع فقط ، بل أن تؤدى مطلوب ما سمعت ، فإن لم تؤد مطلوب ما سمعت ، فكأنك لم تسمع. بل تكون شراً ممن لم يسمع ؛ لأن الذى لم يسمع لم تبلغه دعوة ، أما أنت فسمعت فبلغتك الدعوة ولكنك لم تستجب ولم تنفذ مطلوبها.

إذن قول الله تعالى :

﴿ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأنفال)

يفسر لنا أن هذا السماع منهم كان مجرد انتقال الصوت من المتكلم إلى أذن السامع بالذبذبة التى تحدث ، ولم يأخذوا ما سمعوه مأخذاً جاداً ليكون له الأثر العميق فى حياتهم. فإذا لم يتأثروا بالمنهج ، فكأنهم لم يسمعوا ، وياليتهم لم يسمعوا ؛ لأنهم صاروا شراً ممن لم يسمع.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

أو أن السمع يراد ويقصد به القبول ، مثلما نقول : اللهم اسمع دعاء فلان ، وأنت تعلم أن الله سميع الدعاء وإن لم تقل أنت ذلك ، لكنك تقول : اللهم اسمع دعاء فلان بمعنى « اللهم اقبله » ، فيكون المراد بالسمع القبول.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وكلمة « دابَّة » تعنى كل ما يدب على الأرض، ولكنها خُصَّتْ عرفاً بذوات الأربع. وجمع دابة دوابّ.

و « الدواب » كما نعلم هى القسم الثالث من الوجود، لأن الوجود مرتقى إلى حلقات؛ أولها الجماد، وثانيها النبات، وثالثها الحيوان، ورابعها الإنسان، ويجمع هذه الأشياء الأربعة رباط واحد، فنجد أن أعلى مرتبة فى الأدنى، هى أول مرتبة فى الأعلى، فالأدنى هو الجماد، وفوقه النبات، وأعلى شىء فى الجماد، يُمثل أول شىء فى النبات، مثل المرجانيات، كأن الجماد نفسه له ارتقاءات فى ذاته تتوقف عند مرحلة معينة لا يتعداها، فلا ترتقى إلى أن تصير نباتاً، أو أن يصبح النبات حيواناً، لا، إن كل قسم يظل مستقلا بذاته وفيه ارتقاءات تقف عند حد معين. وإذا كان أعلى شىء فى الجماد يكاد أن يماثل أول شىء فى النبات. فهو لا يتحول نباتاً مثل ظاهرة نمو الشعاب المرجانية التى أخذت ظاهرة النبات، لكنها لا تنتقل إلى نبات، بل تظل أعلى قمة فى الجماد. وكذلك النبات، نجده يرتقى إلى أن ينتهى إلى أعلى مرحلة فيه. فالنبات مراحل، وآخر مرحلة فيه أن يوجد نبات يُحسّ، لأن الإحساس فرع الحياة، وهذا ما نراه فى نباتات الظل التى نشاهدها وهى تتجه بطبيعة تكوينها إلى نور النهار. وكأن فيها نوْعاً من الإحساس. وإن تغير مكان الضوء، فإنها تُغيِّر اتجاهها إلى المكان الجديد.

وهناك نوع من النبات يذبل فور أن تلمسه. ونسمع عن نبات يسمى فى الريف « الست المستحية » وهى تغلق أوراقها على ثمرتها فور اللمس، وأخذت

أعلى مرتبة فى النبات، وهى أول مرتبة فى الحيوان، لكنها لا ترتقى إلى حيوان. بل تظل فى حلقتها كنبات.

ونأتى إلى الحيوانات لنجدها ترتقى، فهناك حيوانات تستأنس، وحيوانات لا تستأنس، بل تظل متوحشة، وقد خلقها ربنا لحكمة ما. فالإنسان يستأنس الجمل ولا يستطيع أن يستأنس الثعبان، ولا البرغوث، كأن الله يريد بذلك أن يعلمنا أننا لم نستأنس الحيوانات التى نستأنسها بقدرتنا وبذكائنا؛ بل هو الذى جعلك تأنس بها، فأنت أنست بالجمل، وقد ترى البنت الصغيرة وهى تقوده، وتأمره بالقيام والقعود، بينما البرغوث الصغير قد يجعل الإنسان ساهراً طوال الليل لا يعرف كيف يصطاده. إذن هذه الأمور تعطينا حكمة أوجزها الحق تبارك وتعالى فى قوله:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

(سورة يس)

ولو لم يذلل الحق تبارك وتعالى هذه المخلوقات، لما استطاع الإنسان تذليلها، ونرى المخلوق الصغير وقد عجز الإنسان أمام تذليله، ليعرف أن المذلل ليس الإنسان، بل المذلل هو الله سبحانه وتعالى. وفى المستأنس من الحيوانات تجد نوعاً تُعوده على بعض الأشياء فيعتادها ويقوم بها مثل القرد الذى يقول له مدربه اعجن عجين الصبية، أو العجوزة، فيقلد القرد الصبية أو «العجوزة»؛ لأن فيه قابلية التقليد، فهو يملك درجة من الفهم وهو أعلى مرتبة فى الحيوان، ويقف عندها ولا يتطور إلى خارجها، بدليل أنك إن علمت قرداً كل شيء، فهو يصنع ما تعلمه له من الحركات ويضحك الناس منه، لكن القرد لا يستطيع أن يعلمها لبنى جنسه. وكذلك نجد من يدرب الأسد والنمر ليؤدى

فقرات ترفيهية فى السيرك، لكن الأسد لا يعلم أولاده من الأشبال ما تعلمه من مدرب السيرك.

إذن فالوجود بحلقاته الأربع؛ جماداً ونباتاً وحيواناً وإنساناً لا ترتقى فيه حلقة إلى الأعلى منها؛ بل تقف عند حد معين، وتلك هى الشبهة التى أصابت بعض المفكرين فى أن يظنوا أن أصل الإنسان قرد؛ لأن المخلوقات حلقات يسلم بعضها لبعض، وأدنى مرتبة فى الأعلى لكل حلقة هى أعلى مرتبة فى الأدنى وتقف فى حدودها. والذى يهدم نظرية داروين من أولها هو هذا الفهم لطبيعة التطور :

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

أى أن كل الكائنات مخلوقة ابتداءً من الله، ولا يوجد جنس قد نشأ من جنس آخر.

ونقدم هذا الدليل العقلى لغير المتدينين، فنقول : لماذا لم تؤثر الظروف التى أثرت فى القرد الأول ليصير إنساناً، فى بقية القرود لتكون أناساً ؟

وهكذا تنهدم النظرية - نظرية داروين - من أولها لآخرها، وعلماء الأجناس يهدمونها الآن. والحق تبارك وتعالى أخبرنا أن هذه المخلوقات التى تقع فى المرتبة تحت الإنسان، لا تستطيع أن ترتب المقدمات، وتأخذ منها النتائج. ولا تعرف البديلات فى الاختيار، والحيوان وهو أرقى الأجناس ليس عنده بديلات؛ إنه يتعلم مهمة واحدة وتنتهى المسألة؛ لأنها دواب لا تعقل، لكن الإنسان يملك القدرة على الاختيار بين البديلات. وجرب أن تعاكس قطة فإنك تجدها تهاجمك وتجرحك بمخالبها إلا إن كنت أنت مستأنسها وتعرف أنك

تداعبها. أمَّا المؤمن العاقل المكلف فهو يتصرف فى المواقف بشكل مختلف. فإن قام إنسان بإيذائه فقد يعاقبه بمثل ما عوقب، وقد يعفو عنه، وقد يكظم غيظه.

﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إذن فأنت أيها المؤمن عندك بديلات كثيرة، لكن الحيوان لا يملك مثل هذه البديلات.

ولذلك ضربنا من قبل المثل : لو أنك علفت حيواناً إلى أن أكل وشبع ثم جئت إليه بعد شبعه بشيء زائد من أشهى طعام عنده؛ تجده لا يأكله. بينما الإنسان إن شبع فقد لا يمانع أن يأكل فوق الشبع من صنف يحبه.

ومثال آخر : نرى فى الريف أن الحمار حين يرى جدولاً من المياه ويكون اتساع الجدول فوق قدرته على أن يقفز عليه ليعبره، نجد الحمار قد توقف رافضاً القفز أو المرور فوق هذا الجدول. فهل قاس الحمار المسافة بنظره ووازنها بقدرته ؟! إنه يقفز فوق الجداول التى فى متناول قدرته، لكنه يرفض ما فوق هذه القدرة، رغم أننا نصف الحمار بالبلادة.

وهذا يبين لنا أن كل جنس يسير فى ناموس تكوينه ليؤدى مهمته التى أرادها له الله. ولقائل أن يقول : كيف يقول الحق تبارك وتعالى : « إن شر الدواب عند الله » بينما الحيوانات كلها مسخرة ؟ ونقول : إذا كنت أيها الإنسان تأخذ وظيفة الأدنى فأنت تختار أن تكون شراً من الدابة ؛ لأن الأدنى مسخر بقانونه ويفعل الأشياء بغرائزه لا بفكره، فكأن فكر الاختيار بين البديلات غير موجود فيه، لكنك أيها الإنسان ميزك الله بالعقل الذى يختار بين البديلات، فإن أوقفت عقلك عن العمل، وسلبت قدرتك على القبول لما تسمع من وحى ألا تكون شر الدواب ؟

وحين نتأمل كلمة « شر وخير » نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾

(سورة الزلزلة)

فالخير يقابله الشر، وحين يقابل الخير الشر، فالإنسان يميز الخير، لأنه نافع وحسن، ويميز الشر؛ لأنه ضار وقبيح.

ولكن كلمة « خير » تستعمل أحياناً استعمالاً آخر لا يقابله الشر، بل يقال: إن هذا الأمر خير من الثانى، رغم أن الثانى أيضاً خير، مثل قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة رضى الله عنه :

(المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير). (١)

إنّ كلاً منهما - أى المؤمن القوى والمؤمن الضعيف - فيه خير، لكن فى الخير ارتقاءات، هناك خير يزيد عن خير، ويخبر المولى فى قوله تعالى : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون).

أى أن الكفار شر مادبّ على الأرض لأنهم قد افتقدوا وسيلة الهداية وهى السماع، وبذلك صاروا بكماً أى لا ينطقون كلمة الهدى.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣ ﴾

فهو سبحانه وتعالى قد علم أنه ليس فيهم خير، فلم يسمعهم سماع الاستجابة.

---

(١) رواه مسلم .

والمولى سبحانه وتعالى منزه من أن يبتدئهم بعدم إسماعهم؛ لأنهم لم يوجد فيهم خير، والخير هنا مقصود به الإيمان الأول بالرسول، وهم لم يؤمنوا. فلم يستمعوا لنداء الهداية منه صلى الله عليه وسلم كمبلغ عن الله تعالى. إذن فعدم وجود الخير بدأ من ناحيتهم، وسبحانه وتعالى القائل:

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وهم - إذن - سبقوا بالكفر فلم يهدهم الله.

وسبحانه وتعالى القائل:

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وهم سبقوا بالظلم فلم يهدهم الله.

وسبحانه وتعالى القائل:

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة المائدة)

وهم سبقوا بالفسق فلم يهدهم الله.

والله منزه عن الافتئات على بعض عباده، فلم يسمعهم سماع الاستجابة لنداء رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)

وعلم الله تعالى أزلي، لكنه لا يحاكم عباده بما علم عنهم أزلاً. بل ينزل لهم

حق الاختيار فى التجربة الحياتية العملية. وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - تجد أباً يعانى من مأساة فشل ابنه فى الدراسة أو فى الاعتماد على نفسه فى الحياة، ويحيا الولد لاهياً غير مقدر لتبعات الحياة، فيقول أصدقاءالوالد له: لماذا لا تقيم لابنك مشروعاً يشغله بدلاً من اللهو، فيرد الأب: إننى أعرف هذا الولد، سيأخذ المشروع ليبيعه ويصرف ثمنه على اللهو. والأب يقول ذلك بتجربته مع الابن. لكنْ ألا يُحتمل أن يكون هذا الابن قد ملَّ الانحراف واللهو وأراد أن يتوب، أو على الأقل ليثبت للناس أن رأى والده فيه غير صحيح؟ لذلك نجد الأب يفتح لابنه مشروعاً، لكن الولد يغلبه طبعه السيىء فيبيع المشروع ليصرف نقوده فى الفساد.

هل حدث ذلك من نقص فى تجربة الوالد؟ لا، بل عرف الأب عدم الجد عن ابنه، وسهولة انقياده لهواه. فما بالنا بالحق الأعلى العليم أزلاً بكل ما خفى وما ظهر من عباده؟.

ولكنّه سبحانه وتعالى شاء ألا يحاسب عباده بما علمه أزلاً، بل يحاسبهم سبحانه وتعالى بما يحدث منهم واقعاً، فهو القائل:

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

فسبحانه وتعالى العالم أزلاً، لكنه شاء أن يعلم أيضاً علم الإقرار من العبد نفسه؛ لأن الله لو حكم على العباد بما علم أزلاً، لقال العبد: كنت سأفعل ما يطلبه المنهج يارب. لذلك يترك الحق الاختيار للبشر ليعملوا على ضوء اختياراتهم ويكون العمل إقراراً بما حدث منهم.

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وحتى لو أسمعهم الله عز وجل لتولوا هم عن السماع وأعرضوا عنه ؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنهم اختاروا أن يكونوا شراً من الدواب عنده ، وهم الصم الذين لا يسمعون دعوة هداية ، وبكم لا ينطقون كلمة توحيد ، ولا يعقلون فائدة المنهج الذى وضعه الله تعالى لصلاح دنياهم وأخراهم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

وهنا نقل المسألة من سماع إلى استجابة ؛ لأن مهمة السماع أن تستجيب .

﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾

أى استجيبوا لله تعالى تشريعا ، وللرسول صلى الله عليه وسلم بلاغاً ، وغاية التشريع والبلاغ واحدة ، فلا بلاغ عن الرسول إلا بتشريع من الله عز وجل ، بل وللرسول صلى الله عليه وسلم تفويض بأن يشرع. ورسول الله لم يشرع من نفسه ، وإنما شرع بواسطة حكم من الله تعالى حيث يقول :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - : نسمع أن فلاناً قد فُصل لأنه غاب خمسة عشر يوماً عن عمله فى وظيفته ، ويعود المحامى إلى الدستور الذى تتبعه البلد فلا يجد فى مواد الدستور هذه الحكاية ، ويسمع من المحامى الأكثر خبرة

أن هذا القانون مأخوذ من تفويض الدستور للهيئة التى تنظم العمل والعاملين.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم مفوض من ربه بالبلاغ وبالتشريع.

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ونجد هنا أيضاً أن الحق تبارك وتعالى قال : « إذا دعاكم » ولم يقل : إذا دعَوَاكُمْ ، وفى ذلك توحيد للغاية ، فلم يفصل بين حكم الله التشريعى وبلاغ الرسول لنا. ونعلم أن الأشياء التى حكم فيها الرسول صلى الله عليه وسلم حكماً ثم عدّل الله له فيها الحكم ، هذا التعديل نشأ من الله ، وهو صلى الله عليه وسلم لم ينشىء حكماً عدّله الله تعالى إلا فيما لم يُنزل الله فيه حكماً. وحين ينزل الله حكماً مخالفاً لحكم وضعه الرسول ، فمن عظمته صلى الله عليه وسلم أنه أبلغنا هذا التعديل ، وهكذا جاءت أحكامه صلى الله عليه وسلم إذا وافقت حقاً فلا تعديل لها ، وإن لم يكن الأمر كذلك فهو صلى الله عليه وسلم يعدل لنا. وبذلك تنتهى كل الأحكام إلى الله تعالى. فإذا قال قائل : كيف تقول إن قول الرسول يكون من الله؟ نجيب : إنه سبحانه القائل :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾

(سورة النجم)

و « الهوى » - كما نعلم - أن تعلم حكماً ثم تميل عن الحكم إلى مقابله لتخدم هوًى فى نفسك ، والرسول صلى الله عليه وسلم حينما عمد إلى أى حكم شرعه ولم يكن عنده حكم من الله عز وجل ، فإن جاءه تعديل أبلغنا . إذن ما ينطق عن الهوى . أى من كل ما لم ينزله الله ، وحكم فيه صلى الله عليه وسلم ببشريته ، ولم يكن له هوى يخدم أى حكم ، ونجد فى قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

أنَّ كلمة « دعاكم » مفردة، مثلها مثل كلمة « يرضوه » فى قوله لكم :

﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة التوبة)

ومثلها مثل الضمير فى « عنه » فى قوله تعالى :

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأنفال)

وفى هذه الآيات الكريمة توحيد للضمير بعد المثنى، وهذا التوحيد كان مثار شبهة عند المستشرقين، فقالوا : كيف يخاطب اثنين ثم يوحدهما ؟ ونقول لمن يقول ذلك : لأنك استقبلت القرآن بغير ملكة العربية. فلم تفهم، ولو وجد الكفار فى أسلوب القرآن ما يخالف اللغة لما سكتوا، فهم المعاندون، ولو كانوا جربوا فى القرآن كلمة واحدة مخالفة لأعلنوا هذه المخالفة. وعدم إعلان الكفار عن هذه الشبهات التى يثيرها الأعداء، يدل على أنهم فهموا مرمى ومعنى كل ما جاء بالقرآن، وهم فهموا - على سبيل المثال - الآية التى يكرر المستشرقون الحديث عنها ليشككوا الناس فى القرآن الكريم، وهى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ ﴾

(سورة الحجرات)

وتساءل المستشرقون - مستنكرين - : كيف يتحدث القرآن عن طائفتين، ثم يأتى الفعل الصادر منهما بصيغة الجمع ؟. ونقول : إن « طائفتان » هى مثنى طائفة، والطائفة لا تطلق على الفرد، إنما تطلق على جماعة، مثلما نقول : المدْرَسَتان اجتمعوا؛ وصحيح أن المدْرسة مفرد. لكن كل مدرسة بها تلاميذ كثيرون، وكذلك « طائفتان »، معناها أن كل طائفة مكونة من أفراد، وحين يحدث القتال فهو قتال بين جمع وجمع ؛ لذلك كان القرآن الكريم دقيقاً حين قال :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾

ولم يقل القرآن الكريم : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا ؛ لأن هذا القول لا يعبر بدقة عن موقف الاقتتال لأنهم كطائفتين، إن انتهوا فيما بينهم إلى القتال. فساعة القتال لا يتحيز كل فرد لفرد ليقاتله، وإنما كل فرد يقاتل فى كل أفراد الطائفة الأخرى، وهكذا يكون القتال بين جمع كبير من أفراد الطائفتين.

وبعد ذلك يواصل الحق تبارك وتعالى تصوير الموقف من الاقتتال بدقة فيقول سبحانه :

﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا ﴾

(من الآية ٩ سورة الحجرات)

وهنا يقول سبحانه وتعالى : « فأصلحوا بينهما »، ولم يقل : أصلحوا بينهم. وهكذا عدل عن الجمع الذى جاء فى الاقتتال إلى المثنى ؛ لأننا فى الصلح إنما نصلح بين فئتين متحاربتين، ونحن لا نأتى بكل فرد من الطائفة لنصلحه مع أفراد الطائفة الأخرى. ويمثل كل طائفة رؤساؤها أو وفد منها، وهكذا استخدم الحق المثنى فى مجاله، واستخدم الجمع فى مجاله، وسبحانه

وتعالى منزه عن الخطأ.

وهنا فى الآية التى مازلنا بصدد خواطرنا عنها وفيها يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

وفى أولها نداء من الله للمؤمنين، والنداء يقتضى أولاً أن يكون المنادى حياً؛ لأنه سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة فاطر)

إذن : كيف يقول سبحانه لمن يخاطبهم وهم أحياء : « دعاكم لم يحييكم » ؟.

وهنا نقول : ما هى الحياة أولاً ؟. نحن نعلم أن الحياة تأخذ مظهرين، مظهرَ الحسّ ومظهرَ الحركة، ولا يتأتى ذلك إلا بعد أن توجد الروح فى المادة فتتكون الحياة، وهذه مسألة يتساوى فيها المؤمن والكافر. وثمرة الحياة أن يسعد فيها الإنسان، لا أن يحيا فى حرب وكراهية وتنغيص الآخرين له وتنغيصه للآخرين، والحياة الحقيقية أن يوجد الحسّ والحركة، شرط أن تكون حركة كل إنسان تسعده وتسعد من حوله، وبذلك تتآزر الطاقات فى زيادة الإصلاح فى الأمور النافعة والمفيدة، أما إذا تبددت الطاقات الناتجة من الحسّ والحركة وضاعت الحياة فى معاندة البعض للبعض الآخر، فهذه حياة التعب والمشقة، حياة ليس فيها خير ولا راحة. وهذا ما يخالف ما أراده الحق سبحانه وتعالى

للخلق، فقد جعل الله عز وجل الإنسان خليفة له فى الأرض ليصلح لا ليفسد، وليزيد الصالح صلاحاً، ولا تتعاند حركة الفرد مع غيره؛ لأن كل إنسان هو خليفة لله، ومادمنا كلنا خلفاء لله تعالى فى الأرض. فلماذا لا نجعل حركاتنا فى الحياة متساندة غير متعاندة ؟

وعلى سبيل المثال : إن أراد إنسان أن يخدم نفسه ومن حوله بحفر بئر، هنا يجب أن يتعاون معه جميع من سوف يستفيدون من البئر؛ فمجموعة تحفر، ومجموعة تحمل التراب بعيداً، ليخرج الماء ويستفيد منه الجميع، لكن أن يتسلل إنسان ليردم البئر، فهذا يجعل حركة الحياة متعاندة لا متساندة.

وقد نزل المنهج من الله عز وجل ليجعل حركة الحياة متساندة؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

والنداء هنا من الله للمؤمنين فقط، فإذا قال الله : يأيها الذين آمنوا استجيبوا لما آمنتم به؛ فهو لم يطلب أن تستجيب لمن لم تؤمن به، بل يطلب منك الاستجابة إذا كنت قد دخلت فى حظيرة الإيمان بالله، واهتديت إلى ذلك بعقلك، وبالأدلة الكونية واقتنعت بذلك، وصرت تؤمن أنه إذا طلب منك شيئاً فهو لا يطلب منك عبثاً؛ بل طلب منك لأنك آمنت به تعالى إلهاً، ورباً، وخالقاً، ورازقاً، وحكيماً، وعادلاً.

حين يأمرك من له هذه الصفات، فمن الواجب عليك أن تستجيب لما يدعوك إليه. ولله المثل الأعلى؛ نجد فى حياتنا الأب والأم يراعيان المصالح القريبة للغلام، ويأمره الأب قائلا :

اسمع الكلام لأنى والدك الذى يتعب من أجل أن تنعم أنت. وتضيف الأم قائلة له : اسمع كلام والدك، فليس غريباً عنك، بل لك به صلة وهو ليس عدواً لك، وتجربته معك أنه نافع لك ويحب لك الخير، هنا يستجيب الابن. وكلنا عيال الله، فإذا ما قال الله : يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول المبلغ عن الله لأنه سيدعوكم لما يحييكم فعلينا أن نستجيب للدعوة.

الداعى - إذن - هو الله تعالى وقد سبقت نعمه عليك قبل أن يكلفك، وهو سبحانه قد أرسل رسولاً مؤيداً بمعجزة لا يستطيع واحد أن يأتى بها، ويدعو كل إنسان إلى ما فيه الخير، ولا يمنع الإنسان من الاستجابة لهذا الدعاء إلا أن يكون غبيا.

ونلحظ فى حياتنا اليومية أن الإنسان المريض، المصاب فى أعز وأثمن شىء عنده وهو عافيته وصحته، وهو يحاول التماس الشفاء من هذا المرض ويسأل عن الطبيب المتخصص فيما يشكو منه، وهناك لكل جزء من الجسم طبيب متخصص، فإذا كان له علم بالأطباء فهو يذهب إلى الطبيب المعين، وإن لم يكن له علم فهو يسأل إلى أن يعرف الطبيب المناسب، وبذلك يكون قد أدى مهمة العقل فى الوصول إلى من يأمنه على صحته. فإذا ما ذهب إلى الطبيب وشخص له الداء وكتب الدواء، فى هذه اللحظة لن يقول المريض : أنا لا أشرب الدواء إلا إن أقنعتنى بحكمته وفائدته وماذا سيفعل فى جسمى؛ لأن الطبيب قد يقول للمريض : إن أردت أن تعرف حكمة هذا الدواء، اذهب إلى كلية الطب لتتعلم مثلما تعلمت. وطبعاً لن يفعل مريض ذلك؛ لأن المسألة متعلقة بعافيته، وهو سيذهب إلى الصيدلية ويشترى الدواء ويسأل عن كيفية تناوله، والمريض حين يفعل ذلك إنما يفعله لصالحه لا لصالح الطبيب أو الصيدلى.

والرسول صلى الله عليه وسلم حين يدعونا لما يحيينا به ، إنما يفعل ذلك لأن الله تعالى أوكل له البلاغ بالمنهج الذى يصلح حالنا ، وإذا كانت الحياة هى الحس والحركة ، بعد أن تأتى الروح فى المادة ، يواجه الإنسان ظروف الحياة من بعد ذلك إلى الممات. وهذه حياة للمؤمن والكافر ، وقد يكون فى الحياة منغصات وتمتلىء بالحركات المتعاندة ، وقد يمتلىء البيت الواحد بالخلافات بين الأولاد وبين الجيران ، ويقول الإنسان : هذه حياة صعبة وقاسية. والموت أحسن منها. والشاعر يقول :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً

وشاعر آخر يقول :

ذل من يغبط الذليــل بعيــش

رب عيــش أخــف منه الحِمام

والحِمام هو الموت ، وكأن الموت - كما يراه الشاعر - أخف من الحياة المليئة بالمنغِّصات. إذن فليس مجرد الحياة الأولى هو المطلوب ، بل المطلوب حياة خليفة يأتى فى مجتمع خلفاء لله فى الأرض. وكل منا موكل بالتعاون وإصلاح المجال الذى يخصه. ولا يصح للوكلاء أن يتعاندوا مع بعضهم البعض ، بل عليهم أن يتفقوا ؛ لأنهم وكلاء لواحد أحد. كذلك خلف الله الإنسان ، خلفه خليفة له فى الأرض وأنجب الخليفة خلفاء ؛ ليؤدوا الخلافة بشكل متساند لا متعاند.

إننا - على سبيل المثال - حين نرغب فى تفصيل جلباب واحد ، نجد الفلاح يزرع القطن ، والغزّال يغزله ، والنسّاج ينسجه ، ومن بعد ذلك نشتريه لنذهب به إلى الخيّاط الذى يأخذ المقاسات المناسبة للجسم ، ثم يقوم بحياكة الجلباب

على آلة اشتراها بعد أن صنعها آخرون. إذن فجلباب واحد يحتاج إلى تعاون بين كثير من البشر ، هكذا تتعاضد الحياة.

وإذا نظرنا إلى العالم الذى نحيا فيه نجده مليئاً بالتعب ، خصوصاً الأمم المتخلفة ، وأيضاً نجد التعب فى الأمم المتقدمة ؛ لأننا نجد صعاليك من أية دولة يصعدون إلى طائرة تتبع دولة كبرى ويهددون بتفجير الطائرة بمن فيها ويفرضون الشروط ، ويُزِلُّون الدولة الكبرى .

إذن فالحياة حتى فى الدول الراقية متعبة.

وعلى سبيل المثال : الحروب التى قامت فى منطقتنا منذ عام ١٩٤٨ مع إسرائيل واستمرت كل هذه المدة الطويلة ، ثم الحرب الأهلية فى لبنان ، ثم الحرب التى دارت بين العراق وإيران ؛ هذه الحروب تكلفت المليارات التى لو استخدمت فى وجه آخر لرفعت من شأن تقدم بلادنا.

إذن الذى يتعب العالم هو الحركة المتعاندة ، والحق سبحانه وتعالى أنزل لنا المنهج القويم ليجعل حركة حياتنا متساندة. فإن اتبعنا المنهج صرنا نأخذ الأوامر من إله واحد ، وصار كل منا مكلفاً بالتعاون مع غيره ، وهذا لن يحدث إلا إذا استجبنا لما يدعونا الله تشريعاً والرسول بلاغاً ، وبهذا تتساند الحياة وتصبح حياة لها طعم. وينطبق عليها قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

(سورة النحل)

أمَّا من يحيا بغير منهج فتكون حالته كما يبينها قول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة طه)

وعلى هذا : فالعقاب على عدم اتباع المنهج الإلهى لا يتأخر إلى يوم القيامة، ولكن الحياة فى الدنيا تكون مرهقة، والمعيشة ضنكا.

إذن إياكم أن تفهموا أن المنهج الدينى لله غايته الآخرة فقط، لا. بل إن اتباع المنهج الدينى لله جزاؤه فى الآخرة، وأما ثمرته ففى الدنيا. فمن يوفق فى هذه الدنيا، وحركته متساندة مع غيره، يعطى له الله الجزاء فى الحياة المستريحة فى الدنيا بالإضافة إلى جزاء الآخرة. وهكذا نفهم أن موضوع الدين هو الدنيا، أما الآخرة فهى جزاء على هذا الاختبار الدنيوى.

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

أى يعطيكم منهجاً من إله واحد؛ لا يعود بالخير عليه ولا على المبلغ عنه وهو الرسول، وإنما يعود بالخير عليكم أنتم، وتلك هى حيثيات الاستجابة، ومن لا يستجب لهذه فهو الأحمق.

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

إذن فالخير يأتى من أمر إله واحد؛ فلا يجعل كل منا إلهه هواه، حتى لا تتعدد الأهواء :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

ولذلك لا يتعرض التشريع من الله سبحانه وتعالى إلا ما للأهواء فيه مدخل، أمَّا الشيء الذى ليس للأهواء فيه مدخل فهو يترك الإنسان ليواجهه بملكاته التى خلقها الله له، والشرع يتدخل فقط فيما يمكن أن يخضع للهوى، أما الأمور التى لا تخضع للهوى فألد الأعداء يتفقون فيها.

والحياة الآن فيها موجة ارتقاء طموحى علمى، وهذا الطموح العلمى نشأ عن التجربة فى المعمل حيث يجلس العلماء الوقت الطويل ليخترعوا ويطوروا، مثال ذلك : « أديسون » الذى قضى وقتاً طويلاً ليخترع المصباح الكهربى، وغيره من العلماء طوروا مخترعاته وجاءوا باختراعات جديدة، ولم ندر عنهم شيئاً إلا أننا نفاجأ بمخترع قد أتى منهم، والعالِمُ من هؤلاء تجده أشعث أغبر، لا يفكر فى العناية بحسن مظهره وقد لا يأكل ولا يشرب، ولا تدرى أنت به إلا إذا الثمرة من عمله واختراعه جاءت، ويقال : فلان اخترع الشيء « الفلانى ». وتنتفع أنت بما اخترع رغم أنك لم تَشْقَ شقاءَه حين أخذت الخير الناتج منه.

ونرى المعسكرات المتضادة فى عالمنا المعاصر تحاول أن تسرق تجارب غيرها فى العلوم، وهذه المعسكرات تختلف فقط فى الأهواء، فذلك شيوعى، وآخر رأسمالى، وثالث وجودى. الخلاف - إذن - فى الأهواء غير المحكومة بالمادة أو بالتجربة. ومن المؤسف حقًا أن ما اتفقنا عليه كالعلوم المادية الكونية التى هى وليدة التجربة، هذه المخترعات نستعملها فى فرض ما نختلف فيه، وهكذا تجد أن التعب فى العالم إنما يأتى من الطموح الأهوائى لا الطموح المادى العلمى؛ لذلك يتدخل الشرع فى الأهواء ويحسمها؛ ليكون كل منا عبداً لله تعالى،

وكل منَّا حر أمام غيره.

والرسول صلى الله عليه وسلم بمنهجه الذى جاء به من الله يدعو الحيّ - صاحب الحس والحركة - إلى أن تكون حياته حياة طيبة ليس فيها ضنك ؛ هذا إن نظرنا إلى كيفية الحياة. فإن قسنا الحياة بعمر الآخرة، فهى لا تساوى إلا القليل ؛ لأن ما لا نختلف فيه كأفراد فى الخلافة يجب أن يكون غاية للخلفاء، فربنا قد يخلق واحدا ليموت فى بطن أمه، وواحدا يموت بعد ساعة من مولده، وثالثا يموت بعد شهر من ميلاده، ومنا من يعمر مائة سنة، ولا يمكن أن يكونَ الأمر المُخْتَلَف فيه غاية للمتحدين فى الجنس، فالغاية أن نعمر الدنيا بالعمل الصالح لنسعد بها، ونعبر منها إلى ما هو أجمل وهى الآخرة، ومأمون فيها أننا لا نموت، ومأمون فيها أننا لن نتعب أبداً، لأنه كلما اشتهيت شيئاً ستجده أمامك. وهذه قمة الحياة الطيبة.

وعلى فرض أنك ستتعب فى سبيل منهج الله حين تبلغه للناس، دفاعاً عنه بالحرب والقتال وبالتضحية بالأموال، فأنت رابح لحياة طيبة أبدية، ويبين القرآن الكريم لنا هذه الحياة فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

فالدار الآخرة ليست مجرد حياة، بل أكبر من حياة ؛ لأن حياتك الدنيا موقوتة ومحددة، ونعيمك فيها على قدر إمكانياتك وتصوراتك، ولكن الحياة الأخرى ليست موقوته بل ممتدة، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات خالقك المنعم القادر. وهكذا تتأكد أنه صلى الله عليه وسلم قد دعانا إلى ما يحيينا.

والحق سبحانه وتعالى حينما دعانا إلى الحياة الطيبة سمى المعيشة فى منهجه

حياة، لأنها حياة سعيدة، وتسلم إلى حياة خالدة. ولذلك سمى الحياة الأولى التى تأتى إذا نفخ الله الروح فى المادة، وقال عن آدم وكل بنى آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٧٢ سورة ص)

وأعطى الله سبحانه وتعالى هذه الحياة للمؤمن والكافر. وسمى سبحانه وتعالى ما يحمل المنهج للناس وهو القرآن روحاً :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

والمنهج - إذن - روح من أمر الله سبحانه وتعالى نزل به الروح الأمين، وهذه هى الحياة المطلوبة لله سعادة، وتسانداً، وخلوداً فى الجنة. ولذلك أنزل المنهج ليمنع التعاند والتعارض والتضاد بين المؤمنين، وليحمى كل مؤمن نفسه من الزلل، فيقاوم المعصية وهى صغيرة قبل أن تكبر وتستفحل.

ثم يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

وماذا يعنى قوله تعالى : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » ؟.

وأقول : إياك أن تظن أن الكافر - على سبيل المثال - يعلن أن قلبه قد انعقد على الكفر؛ لأنه قد يجرب أن يخلع نفسه من هواه وينظر إلى حقيقة الإيمان

فيقتنع به، ولن يسيطر على هواه، وقد انقلب أكثر من قلب شرير إلى قلب خير، مثل صناديد قريش من الكفار الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد كانت قلوبهم معقودة على الشر، لكنها لم تستمر على الشر، بل حال الحق بين كل امرىء منهم وقلبه.

والقلب هو محل التمنيات والأماني، وأول الأماني أن تطول حياة الإنسان، خصوصاً وهو يرى أن من فى مثل عمره يموت، ومن فى مثل عمر والده يموت. وأن جده يموت، ولأن الإنسان يحب أن تطول حياته، يرغب فى أن ينجب ولداً ليمتد ذكره، إنه يريد الحياة ولو من غيره، مادام منسوباً له.

كما أن الإنسان يحب الآمال، ويبنى فى أحلامه الكثير مما يريد أن يحققه، والواجب عليه ألاَّ ينسى أن لهذا الكون إلهاً قادراً، قد ينهى حياة أى منا رغم أن كل إنسان يحلم أن تطول حياته، وقد يقف بين الإنسان وبين آماله التى يريد أن يحققها، ولا أحد منا معزول عن خالقه، وكل منا فى يد الخالق، وسبحانه وتعالى لم يخلق الخلق ثم يترك النواميس لتعمل دون إرادته، بل كل النواميس فى يده.

ومادام الحق يحول بين المرء وتمنيات قلبه؛ استطالة حياة، وتحقيق آمال، وستراً للموت وأسبابه وزمنه، كل ذلك لنتجه دائماً إلى فعل الخير لنحيا فى ضوء المنهج وأنت لا تعرف متى ينتهى الأجل، وإلى الله المصير.

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾